

أسرار رمضا نيّة/ج13



(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لِرُءُوسِهِمْ بَلًا هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ).

لا يختلف الإنسان عن الحيوان بالخلقة، فلكلٍّ منهما (قلبٌ وعينٌ وأُذن) وإنما يختلف الأول عن الثاني بالجوهر، ألا وهو العقل، فبينما يهتدي الإنسان لعمل الخير بعقله، يهتدي إليه الحيوان بفطرته التي يسميها القرآن الكريم بالوحي، كما في قوله تعالى: (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

وفي الآية إشارة إلى أن القلب، وربما المقصود به النية المعقودة بيقين، والعين والأذن، هي

مصادر التغذية للعقل، فإذا تم تفعيلها وتنشيطها بشكل سليم وصحيح، فإنَّ العقل سيعمل بشكل سليم وصحيح، أما إذا لم يوظَّفها الإنسان بالشكل السليم، فإنَّ العقل سيمرُّض ولا يُنتج المطلوب منه والذي ينبغي أن ينتهي بالعمل الصالح، ولهذا السبب تصف الآية المباركة بعض الناس على أنَّهم يمتلكون (القلب والعين والأذن) من ناحية الخلق، الناحية الفسيولوجية، إلا أنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون، كيف؟.

أولاً: فعندما لا يتعامل الإنسان مع الفكر بشكل سليم، فيبحث عن التوافه ولا يعير إهتماماً للفكرة الحقيقية، يقبل بأن يكون طبالاً في جوقه القائد الضرورة، عندها يكون من مصاديق الآية الكريمة، كما يقول تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ آلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِرِغْوَةٍ عَلَيْهِمْ وَيَتَذَخَّرُهَا هُزْوَاً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ).

ثانياً: وعندما يرفض أن يصغي إلى الحقيقة من أجل أن يؤمن بها، فتراه يهرب منها مستكبراً ومعانداً، إما لمصلحة شخصية أو خوفاً على منافع يستفيد منها القائد الضرورة، أو خوفاً من جلاوزة السلطة، عندها، كذلك، سيكون مصداق الآية المباركة، ولهذا المعنى أشار القرآن الكريم بقوله: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَرَأَى لَآئِمٌ مُّسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشَّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ).

ثالثاً: أولئك الذين يتجاهلون قول الحقِّ، ويتغافلون عنه، لحاجة في أنفسهم، الذين يصغون بآذانهم ويرفضون بقلوبهم، أولئك، كذلك، مصداق الآية الكريمة، وهم يظنُّون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) ولقد تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله: (وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفياً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَائِعَ اللَّاهُ عَلَيْهِمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنِ تَبَيَّنُوا أَهْوََاءَهُمْ).

رابعاً: وإنَّ للحُجُب التي يضعها الإنسان على قلبه وسمعه لها دورٌ كذلك في أن يكون مصداق الآية الكريمة، فلقد تحدَّث القرآن الكريم عن ذلك بقوله: (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَنَعملُ إِنَّا نَنَظِّرُكَ عَامِلُونَ).

خامساً: فإنَّ للتمزت والعصبية والعناد والإصرار على الباطل واتباع الهوى حد العباداة ليتحكم

بالعقل بشكل مطلق، كلها عوامل تحوّل الأعضاء الثلاثة المذكورة في الآية المباركة إلى مجرد أشكال وأحجام ليس لها أي معنى أو فائدة، فيكون المرء مصداق الآية، كما يتحدث القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عِلْمَهُ عِلْمًا وَخَتَمَ عِلْمَهُ سَمْعَهُ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ عِلْمًا بِصِرْهِ غِيَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ).

وإنّ من هذه الحجب تقديم المصالح الحزبية والفئوية على الصالح العام، ومنها الخوف وعبادة الشخصية والتقليد الأعمى، إنّ كلّ ذلك، وغيره، تعتبر حجاباً تسلب العقل التفكير الحر، وتمنحه إجازة مفتوحة، فينتهي دوره في حقيقة الأمر.

سادساً: كما إنّ للميراء دور في ذلك، على حد قول أمير المؤمنين (ع): "فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دَيْدَنًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ" وكذا التعنّت في السؤال، عندما نصح سائلٌ بالقول: "سَلْ تَفَقَّهُهَا وَلَا تَسْأَلْ تَعَنُّتًا"، فإنّ الجاهل الممتنع عن سؤاله شبيهه بالعالِم، وإنّ العالِم الممتنع عن سؤاله شبيهه بالجاهل الممتنع عن سؤاله.

أما إذا اجتمعت كلّ هذه في واحد، فيصدّق عليه قول الله تعالى في محكم كتابه الكريم (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ* إِنَّ شَرَّ الدِّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ* وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ).

وكلّ رمضان وأنتم بخير.